

القبح عند ابن الدباغ القيرواني: مقارنة استيطيقية بأفق حدائي عند نموذج صوفي.

## The ugliness According to iben al-Dabbagh of Cyrene :An aesthetic approach whithe a modernist horizon upon a Sufi mode.

مُجد رضا حشاني\*

جامعة باتنة 1، (الجزائر)، mohamedredha.hachani@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2021/05/03 تاريخ القبول: 2021/07/02 تاريخ النشر: 2021/07/15

### ملخص:

يرى ابن الدباغ ان القبح عارض في الوجود وان الجمال هو الجوهرى، كما يؤكد على ان غياب الكمال يؤدي الى غياب الجمال ومن ثمة يؤدي الى ظهور القبح، ويرى ابن الدباغ أهم العوارض التي تعيق الكائن عن بلوغ كماله ومن ثمة جماله هي الكثافة الظلمانية اي المادة وما يتعلق بها من صفات لأخلاقية وانغماس في الشهوات المادية ووجود هذه العوارض وجود زائف وهمي لذا فالقبح أيضا وجوده زائف، كون أن الوجود الأصيل والحقيقي هو الله وحده عز وجل، وهو متصف بالجمال والخير والحق المطلق، و فكرة إثبات هذه الصفات على كمالها للذات الإلهية وتحققها بما هي مقصد الشريعة الإسلامية التي تقوم على تقديس و تنزيه الذات الالهية في أسمائها وصفاتها وفعالها وجميع ما يتعلق بها، وان قلنا غير هذا: أي ان القبح موجود ووجوده اصيل وانه يمكن للقبح ان يكون قبحا مطلقا، لأثبتنا صفة القبح للذات الالهية وسبحان الله عما يصفون، مما يؤكد ان مفكرنا لم يصغ نظريته حول الاستيطيقا السلبية: القبح على أسس دينية نقلية بحته ولا جمالية أخلاقية فحسب، بل تعدى ذلك و ابدع ان جعل لها تأصيلا انطولوجيا، تتعلق بمفهوم الوجود الأصيل: الذي هو للذات الالهية فقط، وكل ما خلى ذلك فهو وجود غير اصيل زائف ايل للفناء .

الكلمات المفتاحية: القبح، الجمال، الذات الالهية، الوجود الاصيل، النفور، اللاأخلاق.

### Abstract:

Ibn al-Dabbagh believes that ugliness is a contradiction in existence and that beauty is the essence. He also emphasizes that the absence of perfection leads to the absence of beauty, and from there it leads to the emergence of ugliness, and Ibn al-Dabbagh sees the most important symptoms that hinder the being | From attaining its perfection, and from there its beauty, oppressive density, i.e. matter and the immoral attributes and indulgences related to it | In material desires and the existence of these symptoms, a false and imaginary existence, therefore, ugliness is also a false existence, since the original and true existence is God alone, the Almighty, and it is characterized by beauty, goodness and absolute truth, and the idea of proving these qualities on their perfection of the divine self and its realization is the purpose of Sharia Islam, which is based on the sanctification and honesty of the Divine Self in its names, attributes, actions and all that is related to it, and if we said otherwise: That means that ugliness exists and its existence is genuine and that ugliness can be absolute ugliness, then we have proven the characteristic of ugliness to the divine self and glory to what they describe, which confirms that our thinkers He did not formulate his theory on negative aesthetics: ugliness was based on purely religious, narrative, aesthetic, and ethical foundations only, but he went beyond that and created an ontological basis for it, related to the concept of authentic existence: which is for the divine subject and only, and everything that leaves that is an inanimate existence, For the yard.

**Keywords:** Ugliness, Beauty, Perfection, Aesthetic Values, Aversion, Impersonation.

\* المؤلف المرسل

## مقدمة:

تعد فلسفة الفن و علم الجمال، مبحثاً من المباحث الفلسفية التي تدرس المنتج البشري المتمثل في أحاسيس البشر و عواطفهم و أفكارهم المتجسدة في أعمال تسمى بالفنية و توصف بالجميلة. و تحاول إخضاع الظواهر الفنية و الجمالية لبحث شروط العمل الفني، و مقاييس الجمال و نظرياته، و على ما تقوم عليه أحكام القيمة المتعلقة بهذا المجال و ضوابطه. في هذا السياق، نجد أن الفكر الجمالي الإسلامي حلقة جد هامة و متميزة من حلقات الفكر الجمالي الإنساني. فنجد أن المبحث الجمالي ضمن هذا الفكر لم يكن من سقط المتاع، بل على العكس من ذلك، إن له مكانة هامة لا يمكننا إغفالها أو تجاهلها، و يكفي كدليل على ذلك أن هذا المبحث ارتبط ارتباطاً وثيقاً بكل الدراسات المتعلقة بالعقيدة الإسلامية، و معرفة من يتوجه له بالعبادة معرفة كاملة يقينية، أسمائه و صفاته -أسماء الذات و أسماء الصفات، و أسماء الأفعال-، كما يرتبط بمبحث الإلهيات، و المحبة، و اللذة، و الحواس و القوى الإنسانية، و لولا القلة القليلة من الأبحاث العلمية الجادة التي قدمها بعض من حملوا على عاتقهم التنقيب عن هذه الثروة الفكرية، لأمكن القول بأن هذا الفكر مازال يعاني حالة من الجهل بقيمته المعرفية على حين اننا نجد الكثير من المختصين على معرفة تكاد تكون تامة بما دق و جل من الفكر الجمالي اليوناني الكلاسيكي أو الغربي الحديث و المعاصر!.

لذلك، تبرز ضرورة معرفية؛ ثقافية و علمية أيضاً تدعو لدراسة تراثنا الفكري الجمالي، ضرورة تأصيل الأطروحات الجمالية الإسلامية القديمة و المعاصرة، فممارسة عملية قراءة التراث الإسلامي الجمالي قراءة معاصرة، أي باستخدام الأدوات المعرفية المعاصرة.

لقد حاولت أن يلتفت مقالنا هذا إلى الفكر الجمالي الفلسفي عند نموذج صوفي، و المتعلق هنا بابن الدباغ القيرواني(\*) و اخترنا مفكرنا كنموذج للدراسة، كونه أحد رجال التصوف في المغرب الإسلامي، الذين لهم مقال في هذا المجال، تبلورت في رسالته التي تطرقت في أحد أبوابها لحقيقة الكمال و الجمال و الجلال و الاحساس المرافق لهما و القيم الجمالية السلبية من قبح و نفور مرافق له، و إن لم نقل أن شذرتة تضمنت نظرية صريحة حول طبيعة الكمال و الجمال و القبح، فإنها كانت على الأقل رؤية متميزة و خاصة بصاحبها اختلفت عن باقي الرؤى.

واعتمدنا في دراستنا هذه، المنهج الوصفي و المنهج المقارن و المنهج التحليلي و المقارب، على أهم مصدر للمؤلف في هذا المجال، وهو رسالته المعنونة: **بمشارك أنوار القلوب و مفاتيح أسرار الغيوب**. و خاصة أننا نجد المؤلف صنف ضمنها الباب الرابع تحت عنوان: في معنى الجمال و الكمال على ما يعطيه المقال، محاولين من خلال هذا العمل، اكتشاف حقيقة القبح و طبيعته عنده، في مقابلة الجمال، فبالأضداد تفهم الأشياء.

(\*) - ابن الدباغ: هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي بن محمد الأنصاري الأسدي القيرواني المالكي و يعرف بابن الدباغ، فقيه و صوفي و مؤرخ و راوية، مشارك في العلوم العقلية و النقلية، متوفى سنة 696هـ، و هو مؤرخ القيروان، و كتب كتاباً في تراجم أهلها، هو أساس كتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" للقاسم ابن عيسى الناجي المتوفى سنة 837هـ. و له كتاب "تاريخ ملوك الإسلام"، و كتاب "جلاء الأفكار في مناقب الأنصار"، و كتاب "مشارك أنوار القلوب و مفاتيح أسرار الغيوب" الذي اعتمدنا عليه كمصدر أساسي و أوجد في دراستنا هذه. و هو نسخة محققة من طرف هـ. ريتز عن نسخة لبروكلمان، توجد في مكتبة توينغن في ألمانيا إلى جنب بعض أقدم كتب المتصوفين في العشق الإلهي، ككتاب "عطف الألف المؤلف على اللام المعطوف" لأبي الحسن علي بن محمد الديلم، و رسالة "جمحة النها عن لمحة المها" لفخر الدين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الفيروز أبادي، و رسالة "نسل الأسرار و سر الأسكار" للمؤلف نفسه. و للتوسعة في ترجمته يرجع إلى المصادر التالية: كشف الظنون لحاجي خليفة (526/5)، هدية العارفين للبغدادي (526/1)، و معجم المؤلفين لعمر كحالة (185/5)، و نيل الابتهاج للتنبكتي (163-164). / (ابن الدباغ، (دت)، هـ. و).

من أجل استخراج الجوانب الجمالية، التي صاغ فيها رؤيته لقيمة القبح والمشاعر المرافقة لها ، وطبيعة القيمة الجمالية. ضمن المصدر الذي بين أيدينا. طارحين السؤال الآتي : ماهو مفهوم القبح عند ابن الدباغ ؟ وعلى أي أساس اصل للقبح هل على أساس مقابلة القبح للجمال فقط، وبتأصيل قيمي بحت: ( ديني -جمالي -أخلاقي)؟ أما تجاوزهها الى بعد اخر وان وجد فماهو ؟

## 1. مفهوم القبح عند ابن الدباغ:

إن اهتمام الفكر الجمالي الإسلامي بمفهوم القبح(\*) (محمود -سالم، (دت) ص 53). هو اهتمام يدرج في المنزلة الثانية بعد الاهتمام الكبير الذي حضني به كل من الجمال و الجلال. و هذا الإدراج في هذه المنزلة لا يعود إلى قلة التفكير فيما هو قبيح، بل يعود في الأساس إلى كون الجمال هو الأصل في الموجودات والظواهر، و إنما القبح عارض من العوارض الذاتية أو الخارجية، لذلك كانت ثانوية الاهتمام تنطلق من ثانوية القبح في العالم، فإله جميل و لا يخلق إلا ما هو جميل\*\* الترميذي. (الترجمان، ص 244 )، و هو نفس ما تفترضه بديهيات نظرية الفيض: «فلا يمكن أن يكون هذا القبح جوهريا في العالم. إذ لو كان كذلك، لكان القبح، بحسب التسلسل الفيضي، صفة من صفات الله» (كليب، (1998)، 194). وهذا يستحيل إلحاقه بالذات الإلهية إطلاقا، سبحانه الله عما يصفون. و ما ذلك إلا تعبير عن الجلال و الجمال و الكمال في الذات الإلهية.

و إذا كان كل من الجمال و الجلال يرتبطان عند ابن الدباغ بالكمال ارتباطا سببيا ووجوديا، فإن القبح يرتبط بالعدم، و لا كل عدم، بل عدم مقتضى طباع الشيء من الكمالات الثابتة لنوعه و طبيعته، أي أن ما لا يحصل على كماله اللائق به الممكن له هو قبيح. فالقبح، بهذا المعنى؛ هو عدم الكمال، و هي نفس الفكرة الجوهرية في تحديد القبح عند ابن الدباغ، فيما أنه عرف الكمال منذ البداية بأنه " سر في وجود الجمال" فهو سبب ظهوره، حيث قال: «فهذا هو الكمال الظاهر و النفوس تتأثر به لأنه مظهر الجمال» (ابن الدباغ، (دت) ، 39). فإذا غاب هذا السبب - أي الكمال - بالضرورة سيؤدي إلى غياب الجمال، و أكد أيضا بتلازم وجود الجمال إذا وجد الكمال، حيث قال: «و إن وجد فيها هذا الكمال وجد الجمال معه، و إن عدم عدم. فالكمال مظهر له و مستدع لوجوده. و لذلك كانت النفس تحب الكمال، لأن الجمال لا يوجد إلا مقارنا له» (ابن الدباغ، (دت)، 45). و منه سيكون لدينا موجود غير جميل يحتمل أن يكون قبيحا؛ بمعنى ما.

(\*) - القبح : من النقاط التي دار حولها الجدل في الفكر الإسلامي، موضوع الحسن و القبح. و الخلاف يدور حول دور كل من العقل و الشرع في معرفة الحسن و القبح، ثم الحساب على ذلك في الآخرة. و اتفقت المعتزلة على أن : الحسن و القبح يجب معرفتها بالعقل، و اعتناق الحسن و اجتناب القبيح واجب كذلك. أما أهل السنة: يقولون العقل لا يدل على حسن الشيء و قبحه في حكم التكليف من الله شرعا، و يعرفون الحسن بأنه ما ورد الشرع بالثناء على فاعله، و القبيح ما ورد الشرع بذم فاعله. (محمود ، سالم، (1994)، 53). (\*\* - إن الله جميل و لا خلق إلا ما هو جميل من المخلوقات و لا يفعل إلا الجميل من الأفعال فهو الخير المطلق الخالص، و الشر إنما هو عدم كله فهو مجرد حكم و الأحكام نسب و هذا ما يوافق قوله صلى الله عليه و سلم في دعائه مخاطبا ربه تعالى: "و الخير كله في يديك، و الشر ليس إليك" الحديث ورد في الترميذي كتاب الدعوات رقم 3344. (الترجمان، (2002)، 244).

و قولنا **يحتمل هنا** لأن ليس كل المفكرين يعتقدون بأن غياب الجميل هو القبح، فهناك من لم يضع القبح في مقابلة الجمال أو كضد له، فإن كان الفلاسفة في أغلبهم يعتقدون مثل الصوفية أن لا بد للقيح أن يتعارض مع الجميل؛ مبررين ذلك بأن النسق المحب للقيم، و التناسق بين قيمنا الثلاثة، لا بد أن ينهار و تنشأ ورطة فلسفية، إن لم نضع القبح كند إزاء الجميل. فقد ربطوا بين الجمال و القبح في مجال الاستيطيقا، بنفس العلاقة التي يرتبط بها الخير و الشر في ميدان الأخلاق، بحيث يشكل الحق الخير و الجمال؛ ثالثاً من القيم المطلقة، و لا بد أن يكون لها أضدادها من اللاقيم المطلقة، و هي الكذب و الشر و القبح (ستيس، (2000)، 93 - 94)، هذا عند الفلاسفة أما المتصوفة فيستبدلون الكذب إما بالعدم أو بالباطل، كضد للحق، إلا أننا نجد من يخالف هذا الموقف و يؤكد على أن غياب الجمال ليس دليلاً لحضور القبح، إنما: «هو ببساطة غير الجميل أو المحايد من الناحية الاستيطيقية، إنه الغياب السلي المحض للجمال. . . فأبي موضوع لا يكون جميلاً و لا يكون قبيحاً لا يخلق فينا مشاعر بالمتعة الجمالية أو الاستياء، سوف يكون مثلاً لغير الجميل، مثل التجريديات الخالصة للعلم، ليست جميلة، لكنها أيضاً ليست قبيحة بل هي غير جميلة» (ستيس، (2000)، 95).

و إن عدنا إلى الفقرة الماقبل الأخيرة، و بالضبط إلى فكرة أن القبح هو غياب الجمال وضده، سواء عند ابن الدباغ أو عند ابن سينا، فإننا نجد أنها تأثراً كمعظم أعلام الفكر الإسلامي بشقيه البرهان و العرفاني؛ و سارا على نسق تأثرهم بنظرية الفيض الأفلوطنية، و فكرة عالم المثل الأفلاطونية، لذلك كان القبح لديهم يوضع إزاء الجميل، و يحل القبح عندما تغيب مواصفات الجمال و مميزاته الأساسية. و هذا لا يحدث عندهما إلا بعوارض تعترض وجود الكائن، تطوره و سيره نحو بلوغ كماله اللائق به، فتحول بينه و بين حصوله على كماله و تحققه به.

ان ابن الدباغ أكد أن أهم العوارض التي تعيق الكائن عن بلوغ كماله هي المادة؛ أي تلك الكثافة الظلمانية و جميع علائقها، كأن تمنع صورة موجود ما من الظهور على التمام و الكمال، مما يقتضي تجلي صفة القبح عليه، و يحصل القبح أيضاً؛ إذا غاب الجمال بأن تفقد المادة كمالها، حيث يضرب لنا ابن الدباغ مثل جمال النبات «إذا ذهبت نضارته و انعكست صورته فصار حطاماً» (ابن الدباغ، (دت)، 51)، تنفر منه نفس الإنسان، للقيح الذي حل فيه، و مثال آخر عن جمال الصورة الإنسانية «كمن غلب على مزاجه المايخوليا» (ابن الدباغ، (دت)، 51). فتتفر منه النفس الإنسانية أيضاً، و إن كانت الصورة محبوبة قبل ذلك - على حد تعبير ابن الدباغ - و يؤكد هذا الأخير بأن النفس الإنسانية: «ستتفر عن كل صورة ناقصة الخلق أو مشوهة» ، (ابن الدباغ، (دت)، 51).

هذا ما يثبت أن ابن الدباغ أقام مفهومه للقيح منطلقاً من العوارض التي تعترض الجمال، خاصة المادية منها، التي تعترض المادة. فالتشوه في الحلقة، و ذهاب النضارة، و تصوح الغضارة، و التحول من الجسم الأخضر الغض إلى الحطام، و غلبة مزاج المايخوليا، كل هذه الألفاظ و العبارات التي استخدمها، تشير على عوارض تتعلق بالمادة، سواء أكانت مادة عضوية النبات، أو مادة جسم الإنسان، أو مادة أي كائن كان. و من المعلوم أن المواد أو الهيولى هي حوامل للصور و الأشكال، فإذا ما وقعت صورة ما في القبح، فإن هذا لا يرجع في الأساس إلى طبيعتها. «بل يرجع إلى طبيعة المادة التي لم تقبل التخطيط و التشكيل و التقويم، لعوارض محددة»، (كليب، (1998)، 195). فالقبول هو الأصل في

المادة، كما أن الجمال هو الأصل في الصورة، بل في الوجود ككل كما أثبتته ابن الدباغ سابقا. و حين تقع الصورة في القبح فسبب ذلك يعود إلى المادة و ما اعترضها في أثناء التخطيط والتشكيل و التقويم. أليس ابن الدباغ من أكد أن الكمال و الجمال الإلهي المطلق هو الأصل، وهو الموجود الحقيقي، و ما سواه وجود عارض محدث، و إذا ما قيس به فهو باطل (\*) و عدم و شر؟ بل ذهب ابعده من ذلك ولم يعتبره وجودا عرضيا زائفا فقط بل اعتبر قولنا بوجوده هو ضرب من المجاز.

و بما أن الأمر كذلك، فلا غرابة في أن يكون الجمال هو الأصل و الأساس في هذا الوجود، و القبح هو العرض. و هذه المقولة ينبغي أن نتعامل معها بمعناها الأوسع. أي أن الجمال يرتبط بالصورة التي هي كاملة بالضرورة، بصرف النظر عن تحيزها في المادة. إذ التحيز، في ذاته، عارض يعترض الصورة. لأن الأصل في الصورة هو التجرد، كما يقرر الفكر الإسلامي. و من هذا يتم التوكيد أن الصورة المجردة أجمل من الصورة المتجسدة. لأن الصورة في تجردها تبقى محافظة على طبيعتها الروحانية، الخالدة الأزلية و السرمديّة؛ من دون أن تتلوث بالمادة الآيلة لتحلل والزوال. بمعنى أن اللطيفة الروحانية في الصورة المجردة لا تشوبها الكثافة المادية و لا تمتزج بها، فهي في حالة أشرف من تلك التي تكون فيها عندما تخالطها. و حين تتصل الصورة بالمادة تتجسد الصورة في تلك الكثيفة الظلمانية، و تنزل من شرف لا تناهي تجردها إلى محدودية تحيزها بجسم مادي ما. و بهذا التحيز تكون قد دخلت في نقيضها و هو المادة. فتحصل على صفتي اللطافة والكثافة الثنائية، واثنية الصورة و المادة. « و هذه الاثنية ليست متأصلة إلا في العوالم الجسمانية. أما العوالم الروحانية فالأصل فيها هو الأحدية، أحدية الصورة أو اللطافة. ما عدا الله الذي ليس بصورة و ليس بمادة، لا يتحيز و لا يتكيف» (كليب، (1998)، 196).

إن حلول الصورة في المادة ليس بلوغها للكمال اللائق بها، بل هو اكتمال للمادة. فالمادة لا تبلغ كمالها إلا إذا اتحدت بالصورة، أما الصورة فهي كاملة في وجودها قبل أن تحل في المادة وبعدها. بل إن المادة هي سجن\*\* (ابن الدباغ، (دت)، 44) الصورة. لأنها كانت في عالمها مجرد حرة غير محدودة، و عند اتصالها بالمادة علائقتها تحددت. و إن يكن هذا السجن لا يؤثر في كمال الصورة و جمالها. إذ لا يؤثر الكثيف في اللطيف، بحد تعبير ابن الدباغ: «إذ لا يفعل الكثيف في اللطيف» (ابن الدباغ، (دت)، 44). و لا يتصل اللطيف إلا باللطيف، و العكس صحيح. «إذ النفس اللطيفة لا يجذبها إلا مناسب لها مثلها أو لطف و لو من وراء حجاب، و لا مناسبة بين اللطيف و الكثيف» (ابن الدباغ، (دت)، 117). فان ما نريد أن ننوه به في هذا المجال هو توكيد أن المادة، في الأساس، عارض يعترض الصورة، فيحولها من حالة التجريد إلى حالة التجسيد، و ينزلها من عالم المجردات المفارقة للمادة إلى سفلية المواد؛ أضف إلى ذلك إذا كان هذا

(\*) - باطل : و ذلك انطلاقا من معنى قول رسول الله صلى الله عليه و سلم: ﴿ألا كل شيء ما سوى الله باطل﴾ الحديث متفق عليه، رواه البخاري/ 6147 و مسلم 1767. فحسب المتصوفة، يتجلى الوجود الإلهي الحقيقي بتحقيق قوله صلى الله عليه و سلم: ﴿كان الله و لم يكن معه شيء، و هو الآن على ما كان عليه كان﴾. الحديث: البخاري 7418/3191.

\*\* - سجن: اعتبر ابن الدباغ كما قلنا، المادة و الكثافة الظلمانية سجنا للطفيفة الروحانية، و نجد هذا صراحة في قوله (من الكامل): حيران في سجن الحوادث موثق\* \* \* \* \* خذن الصبابة في الحضيض الأوهده نسي المعارف و اللطائف فانبرا\* \* \* \* \* يبغى الحياة من الموات الجلمده،(ابن الدباغ، (دت)، 44).

العارض الذي هو المادة قد اعترضه هو الآخر ما يحول بينه و بين حصوله على صورته وقبولها على أكمل وجه!. فما درجة قبح المادة في هذه الحال؟!.

و على أية حال، فإن وقوع القبح في الموجودات أمر عارض قليل الحدوث. غير أن لهذا الوقوع وظيفة محددة، فلولا القبح ما عرف معنى الجمال و قيمته، و كما يقال إنما تعرف الأشياء بأضدادها. و هذا ما يثبت ما أشرنا إليه سابقا، حول وجود القبح حقيقة، فإن **حقيقة القبح** ( ) تبدو مشكوكا فيها (عزت، (دت)، 131). مادام القبح ضرورة من أجل إظهار الجمال وإعلاء قيمته، فمن البديهي أن لا يكون قبحا مستكرا، أو لا يكون قبحا البتة، في نهاية المطاف. و إذا ما عدنا إلى فكرة ابن الدباغ، كون أن الأصل في الوجود هو الجمال و الخير و الحق، و فكرة إثبات هذه الصفات على كمالها للذات الإلهية و تحققها بها، و من ثم فلا موجود إلا الله، سنجد أنفسنا، بهذا المنطلق، أمام فرض يبدو طبيعيا هو أن القبح ليس قبحا في الأصل - كنتيجة حتمية لكون لا وجود إلا لله؛ و الله جميل و منه فلا مجال لوجود القبح. « بل هو جمال، و لكن من نوع خاص. أي أنه جمال على صعيد الوظيفة حيث يظهر جمال الجميل، و لولاه لما كان للجمال ذلك الظهور » ، ( كليب ، (1998، 197).

و هي نفس الفكرة التي تحدثت بها فلسفة الفن و علم الجمال المعاصر التي اعتبرت أن: « **و البشاعة جمالا في بعض الأحيان**، مجرد أنه تقليد، أي خيال لا واقع، قلنا هذا صحيح، و لكننا إن أعجبنا عندئذ فإنما نعجب بما للفنان من قيمة واقعية أولا، ثم بشيء واقعي حي ليس تقليد الجمال بالنسبة إليه إلا أداة تعبير. فليس تقليد القبح و الألم (و لاسيما الألم الجسمي الذي لا ينطوي على رفعة أخلاقية) عنصرا أساسيا في الفن، و إنما هو ، شأنه كشأن كل تقليد و كل خيال، نتيجة شيء من العجز. و يمكننا أن نعلل تصوير القبح في الفنون على وجه العموم، برغبة الفنان في أن يهب لنظراته مزيدا من الاحتمال، لعجزه عن أن يهب لها الواقع ذاته. إن **بعض القبح ضروري للفن، لأنه في بعض الأحيان شرط من شروط الحياة.** و ما أشبهه بتلك التعضنات والتجعدات التي يفرضها السائحون في المناطق القطبية على وجوههم بإرادتهم، إنعاشا لعضلاتهم، ومنعا لتقاطيعهم أن تتجمد من البرد » (جويو، (دت)، 49).

إن الاعتبار، إذا، هو السبب في وجود القبح في بعض الموجودات. و بما أن القبح يحقق هذه الغاية - غاية الاعتبار - فإن له وجهها جميلا بالضرورة، وجهها نعتز به، و نقدر، من خلاله، الجمال.

(\*) - يقول رودان في هذا الصدد تعليقا على قصيدة بودلير: « **كثيرا ما يكون طابع الشيء الذميم أظهر و أقوى من طابع الشيء الجميل**، لأن الحقيقة الباطنة قد تتجلى في سهولة و يسر، على أسارير وجه المريض، أو قسمات سحنة خبيثة، أو في كل ما هو مشوه أو ذابل أو عليل. بينما هي قد لا تتجلى بمثل هذه السهولة في القسمات المنظمة و الأسارير السوية... . و لما كانت قوة الطابع، هي الأصل في جمال الفن، فإننا نلاحظ في كثير من الأحيان، كلما زاد قبح الموجود في الطبيعة، زاد جماله في الفن. و إذن فليس من قببح في الفن سوى ما خلا من الطابع أو الشخصية. أعني ما تجرد من كل حقيقة خارجية كانت أم داخلية. . . أما بالنسبة إلى فنان خليق بهذا الاسم. فإن كل ما فبالطبيعة جميل. لأن عينيه حين تتقبلان بشجاعة كل حقيقة خارجية. فإنهما عندئذ لا تجدان أدنى صعوبة في أن تستشفا من خلالها، ما يكمن وراءها من حقيقة باطنة و كأنهما تقرأ كتابا مفتوحا. . . شارل لالو: بشرط أن نفهم أن هذا الشيء قد يكون جميلا أو قبيحا في الطبيعة دون أدنى اكتراث. ( زكريا ، (1988)، 50-51). و من الأعمال الفنية و الأدبية التي استخدمت القبح للتعبير عن الجمال: جل قصص المقامات الأدبية المشهورة، و أحذب ابن الرومية و بخلاء الجاحظ و مثالب و زيري التوحيدي و بخيل موليير و متحلفاته ونصوص بودلير و نيتشه. (عزت، (دت)، 131).



و بذلك، فان وظيفة القبح تكمن في تبيان الجمال، وفي الاعتبار. و في الحالين فإن القبح يقوم بوظيفة إيجابية. مما يجعل له وجها جميلا (\*) (جويو، (دت)، 49-52).

و يمكن تحديد القبح، علاوة على تحديده، بالنقص، أي نقص الجمال بنقص الكمال ومواصفاته، بالتناظر أي أن النقص الموصوف بالتناظر هو القبح. و هو ما عبر عنه ابن الدباغ: «و كذلك تنفر النفس أيضا عن جسم النبات إذا ذهبت نضارته و صوحت غضارته و انعكست صورته فصار حطاما. بل تنفر عن الصورة الآدمية إذا ذهب عنها رونق العقل فأظلمت، كمن غلب على مزاجه المالمخوليا، و لو كانت تلك الصورة قبل ذلك، و تنفر عن كل صورة ناقصة الخلق أو مشوهة» (ابن الدباغ، (دت)، 51).

فالقبح، إذا هو الناقص المتناظر أو المشوه. و هذا ما يذكرنا بقول شارل لالو، عالم الجمال الفرنسي المعاصر، « لكي تكون الطبيعة قبيحة، يجب أن تبدو أنها أخطأت هدفا ما، و أن تنتمها، إلى حد ما شعوريا، بأنها فشلت في تطبيق صياغة فنية ملازمة و التي بدونها تكون لا جمالية. و القبح في الطبيعة هو مبدئيا المسخ الأعجوبي» (لالو (1982)، 75-76)، و إن كان الجمال يحدد عند كانط بأنه صفة الشيء الذي يلذنا، أي يسبب لنا اللذة؛ فإن القبح عنده: «هو الذي يسبب لنا الاشمزاز» (أبو ملحم، (1990)، 114). و ما يذكرنا أيضا بقول تشير نيشفسكي، عالم الجمال الروسي، الذي فحواه أن «الموضوع القبح هو ذلك الذي لا يبننا بالحياة و لا بتطورها الموفق»<sup>(18)</sup> (د أبو ملحم، (1990)، 114).

(\*) - جميلا: إن هذه الفكرة؛ تشبه إلى حد بعيد قول فلاسفة الفن و الجمال الغربيين بوجود الجمال في القبح، و حسب مصطلحهم: "جمال القبح"، فمثلا نجد جان ماري جويو قد تعرض لهذه المسألة في كتابه "مسائل فلسفة الفن المعاصر" حيث رأى «أن في الانسجام الذي يثوي في أعماق الحياة، و إن في التضامن الذي يفترضه وجود الحياة بين مختلف الأعضاء، لجمالا عميقا حقيقيا قد يحاول الفن ان يبرزه عن طريق هذا التشوه الدميم في الصور و الأشكال، و لكن لا بد للفنان حينذاك من ان يدخل في هذا التشوه ما لو فقد لاستحالت الحياة، أعني التوازن و التناسب. و عندئذ ندرك الاتساق وراء الاضطراب، و الانسجام وراء الشذوذ، و الواقع وراء الخيال، و الطبيعة وراء التقليد، و إذن فليس تقليد الدمامة في الفن الإنساني إلا وسيلة ضرورية، أو أداة لا بد منها. (التقليد: قال سولي برودوم:» في إمكان نحات لأن يخلق من جذع الأحذب أثرا فنيا رائعا، إذا استطاع أن يدرك التعاون الحيوي العميق الذي يجعل الحدبة تؤثر في زاوية الوجه، و حتى في قسماات السحنة، ثم عبر عن ذلك التناسب بين الأشكال. ذلك أن المصابين بالحدبة متشابهون مهما اختلفوا متشابهون في أنك ترى الحدبة أينما نظرت في أجزاء أجسامهم. و من هذه الناحية يمكن القول بأن ثمة أحذب جميلا في نظر النحات كما يكون ثمة أحذب جميل في نظر العالم الطبيعي الذي يعجب بهذا التوافق بين القسماات. و طبيعي أن هذا الجمال ليس إلا شرطا من شروط الجمال التصويري، و لكن الفنانين يقدرونه جيدا لأنه جوهرى و نادر، و لأنه يقتضي قدرة عظيمة على الملاحظة. و في رأيهم أن من يخون الحقيقة التصويرية في سبيل جمال الخيالي، دون من يراعي هذه الحقيقة، و إن كان خياله فقيرا» التعبير في آثار الفن، ص 204". إذن فجمال الأحذب الذي يصوره أو ينحته فنان كبير، أي جمال القبح، هو الانسجام الكامن وراء الاضطراب، أعني الحياة التي تحقق النظام في قلب الفوضى». . . فإن قيل أن لتقليد القبح و البشاعة جمالا في بعض الأحيان، لمجرد أنه تقليد، أي خيال لا واقع، قلنا هذا صحيح. . . ألا نشعر إزاء أثرين فنيين كلاهما نابض حي بدرجة واحدة أننا نميل عادة إلى أجملها؟ إننا نحس دائما بأن الجميل أدنى إلى روح الشعر، و أجدر بأن يخلق. و لكي نفهم ما أسماه روزنكرانتس بجمال القبح، لا بد لنا من بعض الثقافة الفنية، فحين يشهد أبناء الشعب بعض درامات شكسبير أو فكتور هوجو فإنهم لا يشعرون بعواطف فنية حقيقية بل يعانون انفعالات عنيفة تكاد تكون مؤلمة. و إن اهتموا بهذه الدرامات فهم اهتمام وحشي، أشبه باهتمام الاسباني بمشاهدة مصارعة الثيران. ألا تسمعهم يقولون «شيء فطيع»! إنهم لا يعنون بتحليل الطباع و السجايا. فلكي ندوق لذة الهول في الفن، أو لذة القبح، أو قل جمال القبح فلا بد أن يكون لنا اهتمام علمي إلى جانب الاهتمام الخيالي. . . إن الفهم هو ربط الشيء بأسبابه و نتائجه، هو التعميم، هو إذن أن تتخطى بنظرك هذا القبح أو ذلك، فما تراه، بل تنظر إلى الحقيقة التي خلفه: فيمحي القبح من أمام الحقيقة. ليست محاكاة القبح إذن إلا محاكاة للجمال، أعني للنظام الكوني العام. و التقليد بوجه عام يميل إلى أن يصبح خلقا، و الخيال يميل إلى أن يندمج في الحياة. و جملة القول: أن غاية الفن هي الحياة، و أن الفنان يندمج في الحياة لا يقلد إلا ليوهمنا بأنه لا يقلد». (جويو، (دت)، 49-52).

إن ابن الدباغ يطرح في قوله: «إذ نجد النفس تنفر بطبعها عن جسم الميت و لو كان محبوبها في حال الحياة» (نيشفسكي، (1983)، 22)، مسألة الإحساس بالموت و علاقتها بالقبح. حيث يبدو أن القبح هو ما يذكرنا بالموت. و كأن كل ما يتعارض و الحياة، أو ما يمثل نقيضها ينطوي تحت القبح. « أي أن العجز الجسماني الكثيف عن حمل الروحاني اللطيف يوقعه في القبح» (ابن الدباغ، (د.ت)، 50). إذ إن فحوى هذا العجز يكمن في النقص من جهة، و في التنافر من جهة أخرى، مما يؤدي بالضرورة إلى أن لا تظهر الحياة، كما ينبغي لها أن تظهر، في الجسماني العاجز. فيكون دالا على الموت، كما يكون دالا على القبح.

### أقسام القبح :

و انطلاقا من كل ما تقدم، نستنتج بأنه لا يمكننا التكلم عن وجود القبح إلا في بعض الموجودات، فإنه لا يمكننا التكلم عن قبح مطلق، أو عن قبح كلي - قياسا و على شاکلة الجمال المطلق والجمال الكلي - انطلاقا من تحليل جملة نصوص ابن الدباغ في كتابه المشارق، فلا وجود إذن لقبح مطلق أو قبح كلي، « كما ليس ثمة قبح نوعي أيضا - أي القبح الخاص بالنوع - » (كليب، (د.ت)، 199).

و لهذا فلا نجد في نصوص ابن الدباغ إلا القبح الجزئي الذي ينقسم حسب رأيه إلى ظاهر و باطن.

**القبح الظاهر:** فهو ما كان مرتبطا بالأجسام. و قد سبق شرحه.

**القبح الباطن:** فما يرتبط بالجانب الأخلاقي. و هو أشنع أنواع القبح كونه القبح الحقيقي الوحيد الموجود، حسب ابن الدباغ، وخاصة انه صوفي، و من المعلوم أن المتصوفة أهل باطن (\*) (الترجمان، (2002)، 249، 251) أكثر من الظاهر، و يؤسسون مجملته منظومتهم المعرفية و القيمة بالارتكاز على العالم الغيبي المتستر وراء ظواهر الأمور و الأشياء والوجود بأسره، بالإضافة على أن هذا القبح هو أعظم عائق يحول بين النفس و بلوغ سعادتها بالوصول إلى حضرة القرب من الله، كونه قبح الأخلاق، الذي لا يمكن أن يكون له وجه جميل، على صعيد الوظيفة. و هو خاص بالإنسان وحده، في علاقاته الأخلاقية فيما بينه و بين أفراد المجتمع.

**علاقة اللاأخلاقي بالقبح :** يتحدد القبح الباطن عند ابن الدباغ، بالذائل و الأفعال اللاأخلاقية، التي يعتبرها

أنواعا من النقصان و الخلل و العوارض التي تهدد الكمال؛ وجوده و بلوغه. فعدم وجود الفضائل هو عدم الكمال الأخلاقي الذي هو القبح الباطن، و عموما، فإن الصفات المانعة للجمال، الموجبة للقبح الباطن، تكمن في نقائص أمهات الفضائل الأخلاقية التي هي الحكمة و الشجاعة و العفة والعدالة، بتعبير ابن الدباغ و تصنيفه لها، فالحكمة يندرج تحتها حسن التدبير و ثقافة الرأي و صواب الظن، و الشجاعة يندرج تحتها كبر النفس و الاحتمال و الحلم و الكرم و

(\*) - أهل الباطن: قال صلى الله عليه و سلم: ﴿ علم الباطن سر من أسرار الله تعالى، يقذفه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده ﴾. و لهذا استعمل الصوفية الرموز و الإشارات ليصون الأسرار عن غير أهلها. و ستندون في هذا العلم أيضا لقوله في الحديث الشريف: ﴿ لكل آية ظاهر و باطن، و حدا و مطلقا إلى سبعة أبطن و إلى سبعين ﴾. (الترجمان، (2002)، 249، 251).



النجدة والوقار، و العفة يندرج تحتها الوقي و الحياء و الخجل و السماحة و الصبر و السخاء و الانبساط و القناعة (ابن الدباغ: ، (دت) ،42).

مما يعني بالضرورة أن أصداد و نواقض أمهات هذه الفضائل هي أمهات الرذائل، و التي هي: الجهل و الجبن و الشراة و الظلم. و من البديهي إن كانت أمهات الفضائل صفات موجبة للجمال، فستكون أمهات الرذائل من الصفات الموجبة للقبح؛ و يندرج تحتها قاسا: سوء التدبير و انحطاط الرأي و خطأ الظن تندرج تحت الجهل، الذل و الخنوع و الجزع و الغضب و البخل وعدم الجيرة، و الدناءة تندرج تحت الجبن، و قلة الحياء و عدم الخجل و الغل و الهلع، و البخل والانباض و اللهفة تندرج تحت الشراة، و إن كان ابن الدباغ يجعل من العدالة هي «وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب و كمالها بالإنصاف، و يندرج تحتها جميع الفضائل التي ينقام بها وجود العالم كله» (ابن الدباغ: ، (دت)، 42)، فمن البديهي أنه سيقابلها في الطرف الآخر الظلم و الإعتساف و السطو والبغي. . . الخ، من الصفات الموجبة للقبح الباطن و التي يندرج تحتها جميع الرذائل و الأفعال اللاأخلاقية ( ابن الدباغ، (دت)، ص 42). التي سيختل بها نظام و توازن العالم كله، هذا إن لم يتدمر.

إن هذه الرذائل التي هي في الأصل صفات النقص، لا تجعل من الإنسان مجلى للقبح فقط، بل تحول بينه و بين الوصول إلى غايته الأسمى و سعادته القصوى المتمثلة في قربه من الله، فالإنسان القبيح، بهذا المعنى الأخلاقي، لا يكون مصدر شر و إساءة إلى من حوله فحسب، بل يسيء أيضا إلى نفسه و ذلك حين يتعد عن طريق السعادة القصوى، فيكون من الأشقياء، (من البسيط):

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته \* \* \* \* \* أتطلب الريح فيما فيه خسران

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها \* \* \* \* \* فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان (ابن الدباغ، (دت)، 100).

«فلا صاحب هذه الشهوات باق مع لذاته و لا فاقد للألم) الناتج عن الانغماس في الرذائل و ما يشوبه من ندم- المؤلف) عليها و لا واصل إلى السعادة الأخروية، و هذا غاية الشقاء- نعوذ بالله منه» ابن الدباغ، (دت)، 115، كما يمكننا إثبات أن ابن الدباغ حقيقة أقر بوجود القبح الباطن؛ من خلال الاستدلال بذلك الموضوع الذي ذكر فيه « حب العلماء و الأفاضل من الناس و هو لا يدري هل كانت صورهم الجسمية حسنة أو قبيحة، إذ لم يجب منهم إلا الصورة الباطنة، . . . كحب حاتم الطائي لما انتشر من جوده و سماحته، و حب عمر ابن معدي كرب لما اشتهر من شجاعته، و السمائل لما ذكر من وفائه، و الأحنف ابن قيس لما نقل من حلمه» ( ابن الدباغ، (دت)، 49)، حيث أكد ابن الدباغ أن الناس «لم يلتفتوا في هؤلاء المذكورين لجمال صورهم الظاهرة و هذا بين بنفسه» (ابن الدباغ، (دت)، 49)، بل إن الالتفات كان إلى جمال صورهم الباطنة، المتمثلة في أخلاقهم النبيلة، نبل ما تحمله من فضائل؛ مما يعني أنه إذا كانت النفوس تحب الجمال الباطن سيقابلها في الجهة الأخرى نفورها و اشمئزازها من القبح الباطن المتمثل في سوء الأخلاق.

لقد وقف ابن الدباغ وقفة مطولة، في خوضه لمسائل الشر و القبح الباطن؛ و جعله في الصدارة من اهتماماته. و ذلك من خلال الهجوم الحاد الذي شنه عليه، و الدفاع عن الجمال الباطن الأخلاقي. و خاصة أن ابن الدباغ يؤكد أننا «أمة محاسن الأخلاق، كما قال صلى الله عليه و سلم: ﴿ إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾» (ابن الدباغ، (دت)، 49)، فالامتثال وطاعة أوامر الله و رسوله هو الأصل في الاهتمام البالغ و الحرص الكبير الذي أولاه ابن الدباغ للجانب الأخلاقي لما له من تجميل الإنسان بمكارم الأخلاق و محاربة القبح الباطن فيه المتمثل في الأخلاق الذميمة. أي أن هناك مقابلة بين الجمال الباطن الذي به يصلح الفرد و المجتمع و "ينقام به وجود العالم كله" -على حد تعبير ابن الدباغ- (ابن الدباغ، (دت) 41-42). و خاصة فيما يتعلق بفضيلة العدالة التي هي أحد عناصر هذا الجمال، و بين القبح الباطن الذي به يفسد الفرد و المجتمع و يحتل العالم كله، ولاسيما في نقيصة الظلم التي تشكل أحد عناصر هذا القبح. فإذا كانت العدالة تشمل جميع الفضائل و تشمل أيضا جميع القوى في كمالها و اعتدالها من مثل القوة العقلية و القوة الغضبية و القوة الشهوانية (ابن الدباغ، (دت) 41-42)، فإن الظلم يشمل جميع النقائص و يشمل أيضا جميع القوى في ونقصاتها و تطرفها. «و من هذا المنطلق يمكن القول أن للظلم عدة مستويات: مستوى نفسي، و آخر أخلاقي، و ثالث سياسي، و القبح الباطن ينطوي على كل هذه المستويات التي إذا تكاملت فسد الفرد و المجتمع معا» (كليب، 1998)، (200).

و منه إذا كانت أمهات الفضائل، عند ابن الدباغ، هي مصدر الجمال الباطن أو الجمال الأخلاقي و مجلده، و في نفس الوقت هي وسيلة من وسائل الوصول إلى السعادة القصوى والتحقق بها في الدنيا؛ بالتنعم برضى الله، و في الآخرة؛ بالقرب منه، التي ينشدها أصحاب العقول الكمل، و يشيد على دعائمها الإطار المفاهيمي لقيمه الروحية و الأخلاقية و الجمالية التي على الفرد أن يتحلى بها، و منه ستكون النقائص و الخلل الذي سيعتري كمال تلك الفضائل و الذي على رأسها الظلم، هي أهم الوسائل المبددة للسعادة، و المؤدية إلى الشقاوة، على كافة الأصعدة.

### المشاعر المصاحبة للقبح:

أما فيما يخص المشاعر و الانفعالات المتولدة عند مشاهدة القبح و تمثله أمام مدارك الإنسان و قواه الحسية، و تلك الأحاسيس التي تصاحب تجلي القبح، فتتنطوي كلها، حسب ابن الدباغ، تحت مفهوم **النفور**، حيث عبر عنه في عدة مواضع، منها قوله: «و تنفر عن كل صور ناقصة الخلق أو مشوهة» (ابن الدباغ، (دت)، 51). و «ينفر عن الصورة المشوهة المنكوسة أو التي فيها نقص أو شين» (ابن الدباغ، (دت)، 40). «إذ نجد النفس تنفر بطبعها عن جسم المييت و لو كان محبوبها في حال الحياة» (ابن الدباغ، (دت)، 50) حيث أكد هذا الصوفي أن النفس تنفر عن الموجود القبيح، لما ينجم عند مشاهدته من ألم و كدر و ما يخلفه من اضطراب و انزعاج، لما فيه من النقص الذي اعتري كمال الموجود، و

(\*) الحديث رواه الإمام مالك في الموطئ و الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل، و الطبراني من حديث جابر. و مكارم الأخلاق، و حسن الأدب كلها جمال باطن، و ضدها قبح باطن و الشرع الحكيم أمر بالالتزام بالأولى و نبذ الأخرى، قال صلى الله عليه و سلم: " أدبني ربي فأحسن أدبي" الحديث: أخرجه ابن السمعاني، بسند منقطع عن ابن مسعود: كشف الغطاء، دار الكتب العلمية، ص 707/ انظر كذلك (الترجمان، 2002)، 482).

التنافر اللذين يتسم بهما. ومنه فإن الأثر النفسي الانفعالي الذي يخلفه القبح هو خلاف و ضد الأثر (\*\*\*) (ستيس، 2000)، (97-98). الذي يولده مشاهدة و تمثل الجمال؛ فإن كان هذا الأخير يولد الأثر الذي هو أثر إيجابي، فإن القبح يولد أثر سلبي على النفس يدفع الذات المتلقية إلى الاشمئزاز الابتعاد و النفور عنه، و منه فإن القبح سيكون بالضرورة مكروه و ممقوت، حسب ابن الدباغ، و ذلك لأنه ضد الجميل الذي هو: «محبوب بالطبع الروحاني و النفساني، إذ الإنسان السليم من الآفات يجب الصورة الحسنة الخلق و ينفر عن الصورة المشوهة و المنكوسة أو التي فيها نقص أو شين» (ابن الدباغ، (دت)، (39-40)).

معشوق و محبوب بالضرورة أيضا. و «لهذا يبدو أنه لا يصح الحديث عن لذة جمالية مصاحبة للقبح. إذ مادام الألم أحد مصاحبات القبح، فلا يجوز الحديث عن هذه اللذة» (كليب، (1998)، (203)).

من خلال ما تقدم من نصوص لابن الدباغ، يتأكد لنا أنه أثبت حقيقة أن النفور الناجم عن مشاهدة القبح، هو أثر نفسي انفعالي سلبي مرتبط به، إلا أن هذا لا يؤدي بالضرورة، إلى أن تكون لذة القبح لذة سلبية. بل إنها لذة إيجابية، فحواها معرفة مواطن النقص و أسباب التنافر، والاعتبار و الاعتاض من أن يتسرب النقص و التنافر إلينا (كليب، (1998)، (204))، وهو ما يجعلنا، حسب، أكثر حسنة من الوقوع في القبح. و من هذا المنطلق، فإن الألم الناجم من القبح، على الصعيد النفسي، يتحول إلى لذة، على الصعيد الجمالي. إنها لذة تجنب النفوس لكل ما هو منفر مشوه كان أو ناقص، مكروها كان أو ممقوت. هنا يبرز دور القبح وتتجلى فاعليته، مطابقة لفكرة جمال القبح (\*\*\*) (ابن الدباغ، (دت)، (121)).

(\*\*) - يرى ولترت ستيس: أن القبح- من النظرة الأولى- على أنه ما يؤدي، لا إلى المتعة الاستيطيقية، بل إلى الألم الأستيطيقي، أو إلى الاستياء الأستيطيقي، إذ كانت كلمة الألم قوية أكثر مما ينبغي. و طالما أن المتعة و الاستياء ضدان، فقد افترض لهذا السبب أيضا أن القبح هو ضد الجمال. لكنه يعتقد أننا سوف نرى أن هذه الطريقة في النظر إلى الموضوع تقوم على خطأ أو غلطة. فالشعور بالألم قد أثاره القبح لكنه ليس شعورا استيطيقيا، لأن الشعور الأستيطيقي الخالص الذي ينتجه القبح هو- على العكس- شعور بالمتعة. و إذ كان يبدو أن هذه العبارة تتطوي على مفارقة، فإنه يعتقد أنه قادر على تبرير هذه المفارقة، فحسبه عن أولئك الذين يؤمنون أن القبح لا يمكن أن يشكل عنصرا في الفن الجميل قد اتجهوا إلى انتاج أشكال من الجمال عاطفية و لا طعم لها، على نحو ما نجده في صور الرسام الإنجليزي "فردريك ليتون" F. leighton (1830-1896). الذي نهج في أعماله نهجا كلاسيكيا و كان من أشهر أعماله "هرقل يصارع الموت"، و "أندروماك الأسيرة"، و "فن الحرب و السلام"، و "فينوس تلعب ملابسها لتستحم" و "حدائق الهاسبريد". . . ، و يؤكد ولترت ستيس أن أولئك الذين اعتقدوا أن للقبح مكانا في الفن، أنتجوا أعمالا فنية قوية، عميقة و حية. غير أن الاستيطيقيين وقعوا في مشاكل لتبرير ما أنتجه هؤلاء الفنانين، فقد رفض جميع المفكرين الجادين الفكرة التي تقول أن القبح في الفن يعمل كأرضية لتقوية أثر الجميل- كما يقال كثيرا- على أنها فكرة سطحية و زائفة. / (ستيس(2000)، (97-98)).

(\*\*\*) - القبح الجمالي: ولكن كيف يكون القبح جميلا؟ هذه المسألة قل من تصدى لها بروية و عمق. و إن كان لهذا الموضوع غير هذا المكان فإنه لا يجوز تركه من دون بعض التوضيح، لما له من صلة بموضوعنا الآن، ولذا أردنا الوقوف على مصوغات تقبل القبح جمالا أو الأسباب التي تجعلنا نرى القبح جميلا حسب رأي ابن الدباغ. إن القبح الذي يغدو جميلا ليس هو عين ذاته، و إنما اعني بذلك ما يظهر لنا من صفة أي موجود على نحو غير مستلطف أبدا، أو التصرف القميء أو الطبع المذموم كل ذلك ليس جميلا في ذاته و إنما يكون جميلا إذا ما تعلق بأداء دور ما. ثمة علاقة وثيقة بين الداخل و الخارج، الظاهر و الباطن، بين الفعل و الانفعال، بين ظاهر السلوك و باطنه، بين السلوك و دوافعه، بين التكوين الخارجي والتكوين الداخلي. هذه العلاقة قد تكون تنافرا و قد تكون تضافرا. ويكون القبح جميلا انطلاقا من هذه العلاقة أو إظهارها إذا غدت منسجمة.<sup>0</sup>

التي اشرنا إليها سابقا عند فلاسفة الفن وعلماء الجمال الغربيين، وفي هذا تكمن إيجابية العلاقة بما هو قبيح، دون أن يعني ذلك التلوث به، أنها إيجابية على مستوى الوظيفة الوجودية، وليس على مستوى الذاتية للقيح\* (الترجمان، 2002)، (244). وهذا هو المعنى الذي أشار إليه ابن الدباغ في قوله: «يوجد في المحبين لله تعالى من يغلب عليه سكر المحبة و تظهر عليه صفة الأنس، فيعانق الحذرات، و يقبل أصناف النبات و أنواع الحيوانات دون التفرقة بين الحسن و القبيح منها، لما يلوح له في هذه المصنوعات من لطائف أسرار الصانع المحبوب» (ابن الدباغ، (دت)، 204).

. لأنه إذا أشرقت أنوار الجمال الإلهي على قلب العارف ولاحت على صفحات الموجودات وتجلت، علم يقينا انه لا اله الى الله فلا موجود في الاصل سواه ومنه يدرك في أعلى مستويات هذا التحقق إن الله جميل ولا يخلق إلا ما هو جميل\*\* (الترجمان، 2002)، (244)، ، وان وجد قبح فانه وجود عارض و على صعيد المجاز لا وجودا حقيقيا وهو من اجل أداء وظيفة وجودية ايجابية إن لم نقل وظيفة جمالية في الأصل\*\*\* (إبراهيم، 1988)، (177). فلولا القبح ما استمتعنا بالجمال وتلدنا به ولا عرفنا قيمته، هذه الوظيفة تثبت أن للقيح وجهها جميلا، «كما أسلفنا سابقا، تكمن وظيفته في الاعتبار. وكأن الاعتبار مؤنس شأنه شأن الجمال، على هذا الصعيد. و لهذا لا غرابة في أن يكون للقيح لذة جمالية إيجابية. على الرغم من كونه قيمة سلبية، و من كون أثره النفسي - الانفعالي سلبيا أيضا» (ابن الدباغ، (دت)، 204). من كل ما تقدم نستنتج أن ابن الدباغ قد نفى إمكانية وجود القبح المطلق و القبح الكلي كما نفى وجود القبح متجسدا في أنواع الموجودات، إلا أنه أثبت وجود القبح الجزئي الظاهر والباطن. و ذلك من خلال تحليله لصفة النقص و الشعور الانفعالي المصاحب لها المتمثل في النفور، و أثبت أنهما مادتا القبح و مظهره، و هما اللذان ينعكسان نفورا على صعيد المشاعر المصاحبة. بحيث يصبح النفور من القبح شعورا نبيلًا يسمو بالإنسان للتمسك بالجمال و الإغلاء من قيمته. وهو ما يبرز إيجابية القبح في الوجود كقيمة فاعلة في الإنسان وقيمته المتعلقة به وفي العالم ككل.

(\*) - إن الله جميل و لا خلق الا ما هو جميل من المخلوقات و لا يفعل الا الجميل من الأفعال فهو الخير المطلق الخالص، و الشر إنما هو عدم كله فهو مجرد حكم و الأحكام نسب و هذا ما يوافق قوله صلى الله عليه و سلم في دعائه مخاطبا ربه تعالى: ﴿هو الخير كله في يديك، و الشر ليس اليك﴾ الحديث ورد في الترميذي كتاب الدعوات رقم 3344. (الترجمان، 2002)، (244).

(\*\*) - إن الله جميل و لا خلق الا ما هو جميل من المخلوقات و لا يفعل الا الجميل من الأفعال فهو الخير المطلق الخالص، و الشر إنما هو عدم كله فهو مجرد حكم و الأحكام نسب و هذا ما يوافق قوله صلى الله عليه و سلم في دعائه مخاطبا ربه تعالى: ﴿هو الخير كله في يديك، و الشر ليس اليك﴾ الحديث ورد في الترميذي كتاب الدعوات رقم 3344 (الترجمان، 2002)، (ص 244).

(\*\*\*) - هناك من يعتقد أن للقيح وظيفة أخرى تتمثل في الوظيفة التطهيرية أو العلاجية، و هي خاصة بفلسفة الفن، حيث تكون مهمة الفن هي تطهير انفعالاتنا، عن طريق ما أطلق عليه أرسطو قديما اسم "الكاتارسيس" Katharsis؛ و هو أن تجيء "المأساة" فتحدث استبعادا أو طردا لما لدينا من مشاعر الخوف و الرأفة و الحب و ما إلى ذلك من مشاعر عنيفة، بأن تستوعب في نطاق خيالي غير ضار كل ما لدينا من حاجة إلى الشعور بمثل تلك الانفعالات. فالعمل الفني هنا إنما يقوم بوظيفة إيجابية هامة، ألا وهي التحرير = أو التحصين الخلفي، كما يظهر بوضوح مما فعله جيته- Goethe حينما كتب روايته الشهيرة " آلام فرتر " حتى يحرر نفسه من تلك الوسواس الانفعالية الحادة التي كانت تدعوه للانتحار! و لعل هذا ما عناه جيته نفسه حينما نصح بعض أصدقائه بقوله: «لنكنم تحذون حذوي، فإنكم إذا أخرجتم ذلك الجنين الذي يعذبكم إلى عالم النور، لن تلبثوا أن تنعموا بالراحة و تشعروا بالسكينة و تظفروا بالهدوء»، و تتجلى بكل وضوح الوظيفة التطهيرية عند أرسطو في قوله: «إن الغاية المنشودة من المسرح هي إحداث التطهير الذي يحدثه في النفس الإنسانية بواسطة انفعالي الخوف و الشفقة» أرسطو. / (زكريا، 1988)، (177).

إن ما طرحه هذا الصؤفي، فيما يتعلق بمفهوم القبح، يغدو ذا قيمة معرفية جد مفيدة وغنية، إذا ما قورن بمفهوم القبح كقيمة جمالية سلبية (مضادة لقيمة الجمال)، في فلسفة الجمال الحديثة والمعاصرة، كالتي عند نيتشه و بودلير و شوبنهاور. حيث نلاحظ الكثير من التشابه في تحديداتهم لصفات القبح و خصائصه، و المشاعر المصاحبة له حين يتمثل أمام الذات فتدركه. مما يفتح أمامنا آفاق استخدام ما توصل إليه ابن الدباغ، من صياغة لهذا المفهوم، في البحوث الجمالية المعاصرة. مع كون منطلقه كان روحاني ميتافيزيقي، إلا أنه توصل إلى كثير من النتائج و الملاحظات الجمالية التي توصل إليها الفلاسفة بموضوعيتهم البرهانية. مما يجعلنا نشير إلى أن فكره الجمالي، لم يكن سطحيًا، و لا هامشيًا، بل استطاع في كثير من الأحيان الوصول إلى جوهر الإشكاليات الكبرى المطروحة في مجال الفكر و الفلسفة الجمالية الحديثة والمعاصرة، و هذا يحسب له لا عليه.

## الموامش وقائمة المراجع

### قائمة المصادر و المراجع:

السنة النبوية: صحيح مسلم.

صحيح البخاري.

جامع الترميذي.

### 1 المصادر:

1. ابن الدباغ: (دت)، كتاب مشارق أنوار القلوب و مفاتيح أسرار الغيوب، تح. هـ. ريتز، دار صادر، بيروت دط.
2. المراجع:
1. تشير نيشفسكي، (1983) علاقات الفن الجمالية بالواقع، ترجمة يوسف حلاق. وزارة الثقافة، دمشق.
2. توفيق سعيد، (2001) الخبرة الجمالية: دراسة في فلسفة الجمال الظاهرية، (هيدجر سارتر ميرلوبونتي دوفرين إنجاردن)، دار الثقافة للنشر و التوزيع.
3. زكريا إبراهيم: - (1988)، فلسفة الفن في الفكر المعاصر، دار مصر.
- (1988) مشكلة الفن. مكتبة مصر.
4. محمود زكي، سالم عدل الدين، (1994)، الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه، دار الفكر العربي - القاهرة.
5. عبد الباعث الترجمان سهيلة، (2002) نظرية وحدة الوجود بين ابن عربي و الجيلي دراسة تحليلية نقدية مقارنة، تق حربي عباس عطيتو، مكتبة خزعل.
6. عزت السيد أحمد، (دت)، الفن و الجمال عند التوحيد، وزارة الثقافة مديرية إحياء و نشر التراث العربي
7. كليب سعد الدين، (1998) البنية الجمالية في الفكر العربي - الإسلامي، وزارة الثقافة، دمشق.
8. لالو شارل، (1982) مبادئ علم الجمال، ترجمة: خليل شطا. دار دمشق.
9. ولتر ستيس، (2000) معنى الجمال نظرية في الاستيطيقا، تر إمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة.
10. أبو ملحم علي، (1990) في الجماليات: نحو رؤية فلسفة جديدة للفن، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت.
11. محمود زكي، عدل الدين سالم، (1994) الإنسان في فلسفة الغزالي و تصوفه، دار الفكر العربي - القاهرة.
12. ماري جويو جان، (دت)، مسائل فلسفة الفن المعاصرة، تر و تقديم د. سامي الدروبي، دار اليقضة العربية.